

ثورة الحجيج .. ومستقبل الأمة البهيج



حامد بن عبدالله العلي

يوشك بإذن الله _ وتباشير المستقبل البهيج تلوح بالأفق _
أن يكون موسم الحج مؤتمراً يلتقي فيه قادة نهضة الأمة

، وقيادات الحركات الإسلامية ، والجهادية ، وفصائل المقاومة ، حول
البيت العتيق ،

وقد مكن الله لهم دينهم ، وأتمّ عليهم نعمته ، ورضي لهم الإسلام دينا ،
والشريعة نهجا ، والجهاد سبيلا ، وقد تحرّرت أمتنا من الطغاة ،
وتجمّعت لترفع راية دين الهداة ، بنهج أجدادنا المجاهدين الأباة .

يُخطئ من يرى الحجَّ غيرَ ثورةٍ على الطغيان ، طغيان النزعة المادية
التي دمّرت الإنسانية ، وطغيان الإنتماءات العنصرية التي تمرّق
البشرية ،

وطغيان المستبدين الطغاة الذين يستعبدون البشر لأشخاصهم !!

فينصبون عروشهم كعبةً تُتَّخَذُ قِبْلَةً لِلنَّاسِ ، ويجعلون حدودهم (السيايكسيكية) ممتلكاتٍ خاصَّةٍ يأسرون فيها (عبيدهم) ، تحت سياط الطغيان ، والإرهاب ، والخوف ، والتعذيب .

ويَتَّخِذُونَ الأوطانَ خزائنَ لثرواتهم التي ينهبونها من فوق تراب الوطن ، ومن تحته ، وفي أجوائه . \$\$\$

بل الحجُّ هي عملية التحرير الكبرى للإنسان ، عبر عملية التطهير الكامل له ، إذ لا تتمُّ عملية التحرير الشامل ، إلا بالتطهير الكامل من كلِّ أشكال إستعباد البشر لغير خالقهم سبحانه .

وذلك يتجلَّى من أوَّل خطوة في الحج ، يطلق فيها الحاج التلبية العظيمة ، شعار التوحيد المبجل ، معلناً أنَّه يستجيب بروحه وجسده ، لخالقه وحده ، لا شريك له ،

فينادي : (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لا شريك لك) _ والصحيح أنَّ الملبِّي يسكت هنا هنيهةً ، ثم يبدأ الجملة التالية بلفظ (لَبَّيْكَ) _ ثم يقول الحاجُّ مجلجلاً :

(لَبَّيْكَ إِنَّ الحمد ، والنعمة ، لك ، والملك ، لا شريك لك) .

أي يقول صارخاً بشعار الحرية الجميل الأعظم : إِنَّ الله تعالى وحده هو الذي يملكه ،

وإنَّه سبحانه وحده يستحقُّ الحمد كله ،

وإنه سبحانه ، وحده ، صاحب النعمة على المطلقة على الإنسان ،
وكلُّ نعمةٍ ظاهرها من غيره ، فمردُّها إلى الله تعالى .

فإذا أعلن الحاجُّ أنَّ أحداً من البشر ، لا يحقُّ له أن يملك البشرَ بغير
حقٍّ ، ولا أن يدَّعي أنَّه صاحب النعمة المطلقة ، ولا أنَّه يستحقُّ الحمدَ
كلَّهُ ،

فكلُّ ما سواه سبحانه ناقصٌ ، ضعيفٌ ، بل عدمٌ محضٌ .

نعم .. كلُّ شيءٍ سوى الله ، هو في الحقيقة معدومٌ .. لولا إرادة الله
وجوده ، وهو لاشيءٍ لولا قدرة الله تعالى على تكوينه ، وهو هباءٌ
منثورٌ ، لولا مشيئة الله أن يبقى في الوجود .

فبأي شيءٍ يستعبدنا الطغاة ، وبأي حقٍّ يسترقُّنا الظلمة البغاة؟!!

وبهذه العقيدة التحريرية الكبرى ، يلبيُّ الحجاجُ جميعاً ، ثمَّ ينطلقون
من كلِّ فجٍّ عميقٍ إلى (سُرَّةِ الأرض) التي خلقهم الله تعالى منها _ ورد
في الآثار أنَّ الأرض دُحيت من تحت الكعبة ، فهي سُرَّةُ الأرض ، ثم خلق الله آدم من قبضة
جمعت كلَّ تربة الأرض _ إلى أمِّهم التي أخرجهم الله تعالى من رحمها : (**منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارةً أخرى**) .

في زحفٍ جليلٍ ، لو اطلعت عليه من علٍّ ، لذهب بلبك منظره ،
وأدهشت عقلك صوره .

حتى إذا وصل الحجيج بعد هذا المسير العجيب ، إلى سرة الأرض ،

داروا حولها دوران الرحي !!

وسبحان الله ... نعم .. كأنك ترى أمنا الأرض في هذا المشهد المهيّب ، وهي تطحن أبناءها طحن الرحي للحب ، لتعيدهم إلى بطنها ، سبع طحنات _ إذ هي سبع أرضين _ فيطوفون هنا ، معلنين عبوديتهم لخالقهم الذي خلقهم من هذه التربة ، من هذه الأرض ، من هذه البقعة بالضبط .

وسبحان الله .. كأنها إعادة للخلق إلى مبدئه ، والخليقة إلى بدايتها ، لتوقظ هذه الإعادة (اللاوعي الإنساني) من سباته ، ولتردّ إليه ذاكرته المنسيّة ، المدفونة منذ القدم في فطرتة ، عبر التاريخ السحيق ،

ولتهزّ ضميره هزاً ، ولتنفض عنه ما علق من علاقات شوّشت على فطرتة ، وحالت بينها ، وبين إرتباطها بالحقيقة العظمى التي من أجلها خلق ،

حقيقة أنّه خلق حُرّاً ، متحرراً من كل أشكال العبوديات إلّا لخالقه ، ولهذا خلقه الله في السماء ، ليكون حُرّاً ، عالياً ، سامياً ، كريماً .

وكأنهم إذا عادوا إلى أصلهم ، في هذه العملية ، عملية الإنصهار العظمى هذه ، يُطهرون من أدران العبودية لغير الله تعالى ، التي لحقت بهم بعد خلقهم على فطرة (الحرية التوحيدية) ،

فيُعاد تحريرهم من جديد ،

ولهذا يعود الحاج كيوم ولدته أمّه ، حُرّاً كما قيل : (كيف استعبدتم

الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) ؟!

ولهذا كان أول ما يفعله الحاج ، من مناسكه أن يهوي بروحه ، وجسده ، إلى البيت فيستلمه ، ثم يطوف حوله .

ثم بعد عملية التطهير هذه ، تخرجهم الأرض من بطنها من جديد ، فيقفون إجلالاً لخالقهم الذي خلقهم من هنا ، يقفون كأنهم في أول خلقهم ، على فطرتهم ،

يقفون أمام بيته ، فيصلون ركعتين ،

يقرأ فيهما الحاجُّ سورتي التوحيد : سورة (الكافرون) وهي سورة التوحيد العملي ، في الركعة الأولى ، وسورة (الإخلاص) وهي سورة التوحيد العلمي في الركعة الثانية.

يقرأ هاتين السورتين ، لأنه في هذا الموقف ، الذي كما وصفنا : كأنه قد أعيد خلقه من جديد ، ينبغي أن يعلن ، أول ما يعلن : أعظم عنواني التوحيد ،

ولهذا هو يقف وراء المقام الذي وقفه إبراهيم عليه السلام ، عظيم الداعين إلى التوحيد ، أبو الأنبياء عليهم السلام ، ثم وقفه خاتم الأنبياء ، وأعظم الموحدين ، محمد صلى الله عليه وسلم .

حتى إذا استعدَّ بهذه الولادة الجديدة لرحلة العمر التالية المدهشة ، والتي سيكرر بها صورة مسيرة الإنسانية عبر تاريخ البشرية ،

إنطلق إلى منى ، ليبقى ليلة هناك ، متهيئاً للذهاب إلى عرفات ،
حيث الرجوع بالزمان إلى القدم ، متذكراً حدثاً ، حدث له فيما قبل
التاريخ ،

عندما أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره ، في هذا المكان ، فأشهدهم
على أنفسهم : (أَلست بربكم) ، فشهدوا هناك في عالم الأرواح لربهم ،
بأنه خالقهم ، ولا يستحق الألوهية سواه ، ثم أعادهم إلى ظهر أبيهم
آدم ، ليتسلسل نسل البشرية عبر الزمان إلى آخر الزمان ،
وفي عقلهم الباطن ، أعظم حقيقة فطروا عليها ، حقيقة الإستسلام
التام لله تعالى.

ولهذا يقف الحاج في عرفة يومه كله ، ليردد التلبية ، وأعظم الذكر : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير) ، ليستقر مبدأ التوحيد لله تعالى ، الذي يحرره من كل عبودية لسوى الله ، يستقر في كيانه إلى أعمق مدى .

ثم الحاجُّ يرجع إلى مزدلفة ، يزدلف فيها إلى زيارة بيت الله تعالى مرة أخرى ، فيبيت فيها ذاكراً لله تعالى ، شاكراً لأنعمه ،

ثم يهبط إلى منى فأول شيء يفعله ، أن يتبرأ من الشيطان ، عدو الله تعالى ، فيرجمه ، ليبعد عن طريقه كل حائل يصدّه عن الرجوع إلى الله تعالى ، إذ كلُّ العلائق ، والعوائق ، التي تستعبد البشر لغير الله تعالى

، إنما هي من صنع عدو البشرية الأول ، والأخطر ، وهو إبليس ،
الشیطان الرجیم .

ثم يقرب الحاجُّ القربان ، بذبح الهدی ، ويقدم لحمها للفقراء : (لن
ینال الله لحومها ولا دماؤها ولكن یناله التقوی منكم) ، لیبدي لربه
العظیم ، إستعداده أن ینفق أطیب ماله ، وأكرم حاله ، لیكون محسناً
إلی من یحتاج إلی الإحسان ،

لیستحق بذلك إحسان الله إلیه _ فإنَّ الله تعالی یحب المحسنین ویجازیهم علی
إحسانهم إحسانا _ فیقبله زائراً إلیه ، وافداً علیه ، فی طواف الحج الأكبر
، ولهذا سُمی : طواف الزيارة .

ثم یحلق شعر رأسه متواضعاً .

ذلك أنه لیس كلُّ إنسان یستحق كرامة الدخول علی ربِّ السموات
والأرض ، ملك الملوك ، فلا بد له قبل ذلك أن : یتبرأ من عدوِّ الله تعالی ،
وأن یكون خیراً ، محسناً متصدّقاً ، وأن یتواضع لربه .

فإذا فعل ذلك قبله الله تعالی لزيارته ، فقضى تفتحه ، وتطیب ، فحينئذٍ
یدخله الله تعالی إلیه ،

فینتقل تارةً أخرى إلی بیت الله المعظم ، فیکرّر الطواف ، فی عملية
تطهیر ثانٍ للإنسانية .

وهذا التطهیر الثاني بهذا الطواف یشیر إلی النهاية ، كما یشیر

الطواف الأول عندما لبى الحاج قادماً للبيت العتيق إلى البداية .

فهو يتذكر في هذا التطهير الثاني أنه سيعود إلى التراب ، إلى أمه الأرض التي خلقه الله منها ، لتطحنه من جديد ، وتعيدهُ تراباً ، ليتذكر نهايته ، إذ هو في هذه الدنيا فانٍ ، خلقه الله ليتمحنه في حياةٍ مؤقتة ، وقد خلق من هذه النقطة بالضبط من (سرة الأرض) ، وسيعود إليها .

ولهذا ..فينبغي للحاج أن يتذكر في هذا الطواف نهايته ، كما يتذكر في طواف القدوم بدايته ،

وعليه أن يستذكر فيما بين ذلك في مناسك الحج مسيرته في حياته ، وهي مسيرة البشرية عبر التاريخ الإنساني كله .

وأنها كلها مسيرة تحررٍ كبرى ، خلق الله تعالى الإنسان فيها ، ليحرره من عبودية غير الله تعالى ، فيتوجه بكليته إلى ربه وحده ، كما قال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

فهي فطرة الله تعالى التي خلق الله الناس عليها ، وكلُّ مولود يولد على الفطرة ، حراً من كلِّ عبودية لغير الله تعالى .

والحجُّ إنما هو عملية إعادة كونيَّة لهذه الولادة ، غير أنها عملية رمزيَّتها ربانيَّة ، عالية ، مدهشة ، أسرارها في غاية الروعة ، والإبهار

وهي عملية ولادة جماعية تجري على البشرية حول سرّة أمّها الأرض كلّ عام .

لكنّها ولادة روحانية ، يُقصد بها ، تطهير الروح الإنسانيّة ، من أرجاس التعلّقات المادية الدنيئة ، وأقذار الشحّ الدنيوية الوضيعة ، وأوساخ الذلّ لغير الله .

ولولا أنّ هذه الولادة الجماعية ، تجري هكذا كلّ عام هنا في مكّة ، لهلكت البشرية كلّها ، ومحيت ، وذهبت الأرض برمّتها ، وخربت .

ولهذا قال تعالى : **(جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ، والشهر الحرام ، والهدى والقلائد ، ذلك لتعلموا أنّ الله يعلم ما في السماوات ، وما في الأرض ، وأنّ الله بكلّ شيءٍ عليم)** ،

وقد ذكرتُ جملةً من أسرارٍ أخرى للحجّ في مقال سابق هنا .

هذا .. ولا يخفى أنّ موسم الحجّ هذا العام ، يطرق أمّتنا ، على حال غير ما كانت عليه ، فهي بحلّةٍ جديدةٍ ، وآمالٍ بكلّ مستقبلٍ بهيجٍ وعوده .

فقد أتاها ، وقد تذوقت حلاوة الحرّيّة ، وعرفت قيمة التحرُّر ، وكسرت أغلال الطغاة المستبدين ، وحطّمت قيود الزعماء المستكبرين .

وجاءها ، وقد حقق نجاحات في طريق الحصول على الحرية من الإستبداد ، نجاحات مذهلة ، بسرعة قياسية ، تعجبت منها الشعوب ،

وتحيرت من روعتها القلوب .

وهي ماضية في حجها الأعظم ، نحو الحرية الشاملة لجميع الأوطان ،
في بلادنا العربية من الخليج إلى المحيط ، لتحقيق ثلاثة أهداف عظمى
:

أحدها : التخلص من كل أشكال الحكم الإستبدادي العائلي الفاسد
العميل ، لإقامة أنظمة حكم راشدة تكرم الإنسان ، وتحترم الحقوق ،
وتقدس العدالة ، وتحفظ مقدرات الأوطان ، وتعيد السلطة إلى الأمة .

الثاني : تحرير الأمة من التبعية لغيرها من قوى الغرب ، والشرق ،
وإطلاق إشراقة حضارتها من جديد .

الثالث : استرداد جميع حقوق المسلوبة ، وأوطانها المحتلة ، وأولها
فلسطين الحبيبة ، وإعادة توحيدها على عقيدتها السياسية التي تقوم
على : إعلاء الشريعة ، وتوحيد الأمة ، والتدرُّع بالجهاد .

هذا .. وإنّ المؤامرات على هذا التغيُّر الثوري المبارك في أمّتنا كثيرةٌ
جداً ، ومن بينها مؤامرة على نهضة الأمة التي تمتطي هذه الثورات
المباركة ، وهي صغيرة ، غير أنّها خفيّة ، إذ هي تُحاك تحت غطاء (
ديني) يتدثّر بـ (سلفية مستعارة) ، موظّفة (لنظام مذعور من رياح
الربيع العربي) ، وتريد أن تصنع صراعاتٍ داخليةً في الصفِّ
الإسلامي في بلاد الثورات ، لتذهب بذلك ريح نصرها ، وتُجهضها في
مهدّها ، ولتؤخّر مسيرتها التي تبتغي التغيُّر الشامل لكلّ الخارطة

العربية الموروثة من نظام سايكس _ بيكو !!

وسنسلط _ مستعينين بالله تعالى _ عليها أضواءَ تفضحها بإذن الله ،
موقنين أنها سيصيبها الخلل ، وسترتدّ على أصحابها بالفشل .
فهذه الرياح المباركة التي تحملها ثقافة الثورة الجديدة في بلادنا من
الشام إلى اليمن ومن الخليج إلى المغرب ، لن تتوقف حتى تؤتي أكلها
بإذن الله تعالى ، على حطام هذا النظام العربي الخبيث الذي لم يدع
سبيلاً لإذلال الأمة ، وإهانتها ، وتمزيقها ، وإضعافها إلاً وسلكهُ .
وسترجع الأمة بعد حجّها إلى قبلة الحرية ، كيوم ولدتها أمُّها ، كما
يرجع الحاج من حجه بإذن الله تعالى .
والله المستعان ، وهو حسبنا عليه توكلنا ، وعليه فليتوكل المتوكلون .

الكاتب: حامد بن عبدالله العلي

التاريخ: 29/10/2011